الأمة الوسط

الدكتور محمد بدوى طبانه
الأستاذ بكلية دار العلوم

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

لعل الإنسانية لم تشهد فى تاريخ حياتها الطويلة مثل ذلك الصراع الرهيب الذى شهدته فى السنين الأخيرة بين قوى العالم وأودى بالملايين الكثيرة من بنى البشر ، ولا يزال يهدد البقية الباقية بالفتك والدمار بما يستحدث من أساليب ويخترع من آلات تثير الفزع وتنشر الرعب فى قلوب الآمنين ، فتحرمهم لذة الأمن والسلام .

وكل فريق يدعى لنفسه المثالية فى التفكير وفى فلسفة الحكم ، وينعت نفسه بشتى النعوت الإنسانية التى تجعل من مبادئه ونظمه آية الآيات وصورة للهدف الصحيح الذى تجد البشرية فى سبيل الوصول إليه .

ويصل الخداع والتضليل بأولئك الذين سوّدوا صفحات التاريخ بظلمهم واستبدادهم وسفك دماء الأبرياء وترويع الآمنين ، وسلب الأحرار نعمة الأمن والحرية إلى أن ينعتوا أنفسهم بأنهم أقطاب « العالم الحر » ليفتنوا الناس بذلك النعت البراق عن آمالهم فى الحياة الحرة الكريمة .

وأكبر الأدلة على ذلك التضليل تحت ستار المبادىء والنظم السياسية والاجتماعية تلك البدع التى استحدثوها والمصطلحات التى اتفق عليها أولئك الطغاة من تقسيم هذا العالم المترامى الأطراف بما فيه من أمم وشعوب إلى دول كبيرة ودول أخرى صغيرة .

والدول الكبيرة فى نظرهم هى تلك الدول التى تملك من أسباب الإرهاب والبطش والتخريب مالا تملك الدول التى اصطلحوا على تسميتها بالدول الصغيرة . ثم إلى من

يوجه هذا الإرهاب وذلك البطش ؟ إنه بالطبع لن يتوجه إلا إلى تلك الدول الصغيرة ؛ أو بعبارة أخرى ستكون دول الأقوياء هي المتصرفة في دول الضعفاء تستعمرها وتستنزف ثرواتها ، وتستولي على مقدراتها وإمكانياتها .

هو إذن منطق الذئاب وشريعة الغاب التي تحكم دائما على الضعيف وتيسر الانهام القوىّ إياه ما وجد إلى ذلك سبيلا . وليس لهذه الشريعة من علاقة بالمثالية التي يتغنون بها ، والتي تنظر في حقيقتها إلى الناس سواسية ، ولا تفرق بينهم على حسب اختلاف عناصرهم أو ألوانهم أو عقائدهم .

وقد بلونا نحن العرب والمسلمين من أولئك الطغاة ما بلونا ، بلوناهم متوددين كما بلوناهم ساخطين حاقدين . وكانوا في تودهم يخدعون الضعفاء والجبناء عن حقهم ليستنيموا عن المطالبة به اغتراراً بالمواعيد العرقوبية والمظاهر الزائفة التي جعل بها حكامنا أبطالا على مسارح التمثيل يفتنون في أعضاد أممهم ، ويفرقون من شمل وحدتها واجتماع كلمتها ، ويدفعونهم إلى العبث دفعا حتى نسوا الهناف لأمانيهم وأوطانهم ، وانقلبوا يدعون للأسماء ويهتفون للأشخاص ، أو للأحزاب المتهالكة المأجورة التي هدمت بناء الأمة في سبيل إشباع نهمها من المنصب والجاه والحظوة والثراء .

ولكن هذه الشعوب قد أفاقت بحمد الله من غفلتها واستيقظت من نومتها على أصوات الضحايا من عشاق الحرية ، وعلى أبواق التحرر التي انبعثت أصداؤها وتجاوبت في أرجاء هذا العالم المترامي الأطراف . وأخذ أولئك الذين ينتسمون عبير الحرية يرهفون آذانهم لأنغامها الشجية ، ويبحثون عن مطالع فجر جديد ، ويتطلعون إلى مشرق السلام والإخاء ، ويهفون إلى مشرع الحق والعدل .

إن العدالة التي تنشدها الانسانية هنا . .

إن الحق الذي تشرئب أعناقهم وتهفو إليه أرواحهم هنا . .

إن الفجر الجديد الذي يمحق جحافل الظلم والظلام قد أشرق على هذا الكون منذ أربعة عشر قرنا في هذا الدين الخالد . وفي هذه الأمة التي استنامت حيناً عن أداء رسالتها نحو الانسانية في شتى مواطنها بفعل الطغاة والجهلة الذين وكلت إليهم الأقدار

تدبير أمرها ، فكانوا عبيداً فى زى سادة ، لأن شهواتهم استرقت نفوسهم . وقتلت حميتهم وبسالتهم التى كانت مضرب الأمثال . ومن ثم صاروا أذيالا وأعقابا بعد أن كانوا رءوساً وهاماً ، وأصبحوا أتباعا بعد أن كانوا متبوعين ، وسرى الفساد إلى طبقات الناس ، وتبلبلت خواطرهم فطفقوا يبحثون عن أسباب السعادة وأسباب المجد ذات اليمين وذات الشمال ومجدهم أمامهم وبين أيديهم ولكنهم ضيّعوه ، وأخذوا يبحثون عنه فى أيدى الناس .

إن لهذه الأمة من دينها الخالد ، ومن تاريخها الزاهر ، ومن تقاليدها المأثورة ، ومن تفكيرها الخصب ، مايجعلها فى طليعة الأمم ، ومايرتفع بها إلى منزلة الكرامة ، وإلى عجلة القيادة ، ومايجعلها فى غنى عن التعاليم المستوردة التى يتهالك عليها المفتونون المخدوعون . « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

فى هذه المقومات القوة لمن ينشد القوة لنفسه وللجماعة التى يعيش فيها . وفيها الإخاء والمساواة لمن يحلم بالمجتمع المثالى الذى فيه الإخاء والمساواة وفيها الحق الذى افتقدته الانسانية وضلت سبيله فى مهامه الظلم والطغيان . .

وفيها التشريع السمح الذى لم يرتجل اعتباطاً ، والقانون السماوىّ الذى لم يحسب فيه حساب كبير ولا حساب صغير ، وإنما روعى فيه الحق المحض الذى يحمى الصغير من جور الكبير .

وفيها حرب الفساد ومظاهره من الأثرة والطغيان ، ليعود الأمل أمام أولئك الذين ذلت أعناقهم أمام سيوف الجشع والأثرة والطغيان . وفيها الحقائق التى يهدى إليها النظر السليم ، والحقائق العملية التى تنظر إلى الفرد كما تنظر إلى المجتمع ؛ وتوفر على كل منهما حظه وتحفظ عليه حقه فى الحياة الحرة الآمنة الكريمة ، قد تضمنتها تلك المبادىء السامية التى حمل لواءها القرآن ، ورفع رايتها الاسلام ، وحملها أولو العزم من الرجال فكتبوا لأنفسهم مجداً بين العباقرة الأفذاذ فى مختلف نواحى الحياة الانسانية ، وكسبوا لأمتهم اعتراف المنصفين من عباقرة المفكرين .

والمسلمون الذين اعتنقوا دين الفطرة يجدون فى كتابهم أروع مثل للحياة وأسمى

قواعد السلوك وأشرف الفضائل وأكرم التعاليم التى تصون متبعها وتحفظه من التردّى والسقوط فى الهاوية .

وتلك المبادىء التى يقرؤها المسلم فى كتاب الله وفى آثار رسوله هى المبادى التى تتطلع إليها الانسانية . ويتنازع شرف الاهتداء إليها الشرق والغرب مع الافراط والتفريط فى حظ الفرد من الجماعة وحظ الجماعة من الفرد . ولم تستطع المدنية المزعومة أن تحل هذه المشكلات أو تضيق الهوّة بين الفريقين ، بل زادت الهوة اتساعاً وعمقاً ، حتى كان ذلك الاصطراع الذى أفقد العالم الطمأنينة والاستقرار .

ولقد آن لهذه الأمة التى قال الله فيها « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أن تفيء لدينها ، وتعود إلى كتابها ، وتعتصم بحبل الله الذى نظم لها مجتمعا فريداً ، اجتمع له من أسباب القوة والتآنق والكرامة والعزة ما يمهد لها سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة . وأن تعرف أنها الأمة الوسط بين تلك الأطراف التى تسارع إليها الخلل ، وأنه قد جاء الوقت الذى تظهر فيه آثارها فى خدمة الحق والعدل والسّلام ، وذلك رسالتها ، وواجب من أهم واجباتها نحو الانسانية المعذبة .

ولقد كان فى تلك المحن التى ابتليت بها تلك الأمّة خير منبّه لها لتفيق من غفواتها ، بعد أن أصبح واضحاً أن الشر الذى أصابها ، والآلام التى عانتها مرجعها انقسامها على نفسها ونزاعها الذى حذرها الله مغبته فى قوله «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وآن أوان نهضتها وبعثها من جديد لتنشر رسالتها ، وتفيض من نورها على العالم الحائر بين الشرق والغرب ، والتخبط فى دياجير الظلام . وتعيدها إلى أصدقائها الذين يدركون منزلتها ، ويقدرون مبادئها ، ويعرفون أمجادها .

وبذلك تستطيع هذه الأمة الوسط أن تعيد مجدها ، وتقوم بدورها فى نصرة الحق والعدل والسلام ؟

بدوى طبانه
الأستاذ بكلية دار العلوم